مكانة بيت المقدس عند رسول الله ﷺ في السنة الفعلية

المسجد الأقصى تهفو إليه قلوب جميع المسلمين منذ بداية الدعوة الإسلامية ، ومنذ بعث الحبيب محمد ﷺ .

وللمسجد مكانة سامية عند رسول الله ﷺ ، فهو ثاني مسجدين وضعهما الله في الأرض لعبادته ؛ ولذلك ارتبط بيت المقدس ـ المسجد الأقصى ـ بالإسلام منذ أيامه الأولى ، وكان هو أول مكان هفت إليه قلوب المسلمين ، وتطلعت إليه أبصارهم خارج الجزيرة العربية ، بل إن غزوتين من غزوات الرسول ﷺ توجهتا صوب بيت المقدس[1]، وهل كانت غزوة مؤتة إلا اتجاهاً إلى بيت المقدس الشريف !

وبداية يجب أن نعرف أين تقع مؤتة ، وأين تقع تبوك :

إن مؤتة[2] تقع الآن داخل المملكة الأردنية ، وقد صارت مدينة كبيرة داخل المملكة الأردنية ، أما تبوك[3] فتقع أقصى الجزيرة العربية على الشمال على مشارف الشام ، وهي تواجه

---

(١) عبد الحميد الكاتب : القدس ، دار الشروق ، بيروت ، ص : ٢٣ .

(٢) مؤتة : بالضم ثم واو مهموزة ساكنة وتاء مستثناه من فوقها ، مثناه وهي قرية من قرى البلقاء في حدود الشام .

(٣) تبوك : بالفتح ثم بالضم وواو ساكنة وكاف موضع بين وادي القرى والشام .

قرية نويبع المصرية التي تقع قريباً جدًّا من الحدود بين مصر وفلسطين .

وأن هاتين الغزوتين لم تكونا في مواجهة قبيلة من قبائل العرب ، بل كانتا في مواجهة الرومان ، وهم حينذاك إمبراطورية هائلة جبارة ، لها جيوش جرارة ، فلم يجبن المسلمون بل خرجوا من جزيرتهم ، وساروا شمالاً لمواجهة الرومان الذين كانوا يحكمون الشام[1].

واتجه المسلمون في غزوة مؤتة إلى الجزء الملاصق للجزيرة العربية من أرض الشام إلى فلسطين ، وفيها بيت المقدس ، وقرية مؤتة التي سُميت الغزوة باسمها تقع إلى أقصى الشمال على الطريق الممتد من الجزيرة العربية إلى فلسطين .

ولكن لماذا كانت هذه الغزوة التي قام بها المسلمون ؟ وهم لا يزالون قلة في العدد ، يُحيط بهم الأعداء الأشداء من كل جانب . . . لماذا يقصدون إلى قتال الروم الذين كانوا يومئذ أكبر قوة على الأرض ؟

إنه لا يُعقل أن يدخل المسلمون القلائل في حرب مع إمبراطورية الروم ؛ لأن واحداً منهم قتل ، فقد غدر بهم قبل

---

(١) عبد الحميد الكاتب : القدس ، ص : ٢٢ .

ذلك عضل والقارة[1]، وقتلوا من المسلمين ما قتلوا ، وكذلك عندما بعث الرسول ﷺ سبعين رجلاً إلى قبيلة بني سليم يدعونها إلى الإسلام فغدر بهم رعل وزكوان ، وقُتل الرجال السبعون ، ولم ينج منهم إلا رجلاً واحداً [2]، وبالرغم من ذلك لم يجرد المسلمون سلاحاً ،ولم يُشنوا حرباً على تلك القبيلة .

ولنفرض أن المسلمين أمنوا في أنفسهم القدرة على أن يُحاربوا إمبراطورية كبيرة قوية ، ألم يكن من الممكن أن يُحاربوا الفرس بدلاً من الروم .

فعندما بعث الرسول ﷺ برسائله إلى الملوك والحكام يدعوهم إلى الإسلام تلقى قيصر الروم الرسالة وقرأها واستمع إليها في تأدبٍ واحترام ورد عليها ردًّا رفيقاً مهذباً . وحمّل من جاء بالرسالة بعض الهدايا ، أما كسرى فارس فقد استشاط غضباً ومزّق الرسالة ، وأرسل إلى أحد عماله يأمره أن يأتيه برأس ذلك الرجل[3] من الحجاز[4].

---

(١) مختصر سيرة ابن هشام ، ٤٦١/١، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ط٤ ، سنة ٢٠٠٠ . مختصر ابن كثير ، ١٢٦/٣ .

(٢) مختصر ابن كثير ، ١٣٩/٣ ، ١٤٠ .

(٣) عبد الحميد الكاتب : القدس ، ص : ٢٥ .

(٤) دكتور محمد حسنين هيكل : حياة محمد ، ص : ٣٠٨ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة الثانية ، سنة ١٩٩٩ . عبد الحميد الكاتب : القدس ، ص : ٢٥ .

فلو كان للمسلمين يومئذ أن يُحاربوا خارج الجزيرة العربية ، وأن يحاربوا ردًا للإساءة أو اتقاء لشر يدبر ضدهم أو غزو خارجي يتوقعون أن يقتحم بلادهم فقد كان طبيعيًا أن تكون حملتهم الأولى موجهة للفرس وليس للروم . . . !!

ولم يكن الفرس أقوى شوكة وأشد بأساً من الروم ، بل كان الأمر على النقيض من هذا . . . فبعد أن انتهت سلسلة الحروب بين الفرس والروم ، وانتهت بهزيمة الفرس وغلبة الروم . وقد كان أثناء المعارك يتعاطف المسلمون مع الروم في حربهم ضد الفرس . . !

ولكن لماذا يبدأ المسلمون أول معركة لهم خارج بلادهم بمحاربة الروم المنتصرين ؟ وكان أيسر عليهم أن يحاربوا الفرس المهزومة .

لابد أن هناك سبباً قويًا وغاية عظيمة وهدفاً كبيراً قد حمل المسلمين على أن يكون أول حرب لهم خارج الجزيرة العربية هي حربهم مع الروم ، وأن يكون أول قطر يسيرون إليه عبر الصحاري والآماد الشاسعة هو فلسطين التي كانت تحت حكم الروم[1].

لا سبب قوي ، ولا غاية أعظم ، ولا هدف أكبر وأسمى من القدس الشريف ، لما له من المكانة العزيزة عند رسول الله ﷺ وعند المسلمين[2].

---

(١) عبد الحميد الكاتب : القدس ، ص : ٢٥ .

(٢) دكتور سيد حسين العفاني : واقدساه ، ١٥٣/١ .

وبعد انتهاء غزوة مؤتة ، وبعد أن رجع الجيش المسلم من مؤتة ، هل انتهى تطلع المسلمين إلى القدس الشريف ؟ وانتهى سعيهم إلى المدينة التي فيها المسجد الأقصى ، وفيها الصخرة التي عرج منها رسول الله ﷺ إلى السموات العلى .

وغزوة مؤتة عاد منها المسلمون فلولاً يُعيرهم الناس في المدينة بأنهم فروا من أعداء الله[1]، ولكن الرسول ﷺ قال عن العائدين من غزوة مؤتة : « ليسوا بالفرار . . . ولكنهم الكرار بإذن الله »[2].

وكان هذا نبوءة لرسول الله ﷺ ، أن هؤلاء الذين عادوا من مؤتة ، هم الذين يمهدون الطريق لرفع راية التوحيد على هذا المكان ، وأنهم سوف ينالون شرف الفتح لبيت المقدس ، وقد كان[3].

وبعد غزوة مؤتة بعام واحد كان فتح مكة ، وأمضى الرسول ﷺ سنتين يرتب فيها أمور المجتمع المسلم الجديد ، ويعمل على نشر الإسلام فيما ينبغي من أرجاء الجزيرة العربية .

---

(١) ابن هشام ، ٢/٢٠٢ . عبد الحميد الكاتب : القدس ، ص : ٢٥ .

(٢) سيرة ابن هشام ، ٢/٢٠٢ .

(٣) مقال منشور للكاتب ، بجريدة صوت الأزهر ، عدد ٤٢٩ ، بتاريخ ٥ ذي الحجة ١٤٢٨ .

ويقوم بآخر غزوة في الجزيرة العربية وهي غـزوة حـنين ، ويُصفي ما بقى من جيـوب الوثنيـة واليهـود ، ويـؤمن حـدود الدولة الناشئة التي تحيط بها قوى كبيرة ، ووسـط هـذا العمـل الكبير المتعـدد الجوانـب المتشـعب الاتجاهـات ظـل القـدس الشريف هدفاً عظيماً يتطلع إليه المسلمون من بعيد[1].

فدعا الرسول ﷺ إلى غزوةٍ كبيرة متجهـة إلى بـلاد الشـام ، وكانت غزوة تبوك ، وهي آخر غزوات الرسول ﷺ .

أين تقع تبوك ؟ إنها في أقصـى شمـال الجزيـرة العربيـة ، وعلى مقربة من حدود الشام خارج الحدود المألوفة للجزيـرة العربية في ذلك الزمن ، وهي على مسيرة عشرين يوماً وليلـة من المدينة[2]، وعلى مسيرة يوم أو يومين من بيت المقدس .

ويذكر صاحب سبل الهـدى والرشـاد أن أهـل أيلـة أهـدوا الرسول ﷺ القلقـاس فأكلـه ، وسـأل رسـول الله ﷺ فـقـال :

---

(١) عبد الحميد الكاتب : القدس ، ص : ٣٢ .

(٢) وهي تبعد ٦٨٠ كم شمال المدينة عن طريق السكة الحديد ، الذي يمر تقريباً بطريق رسول الله ﷺ لتبوك وتبعد ٧٨٠ كم عن طريق خيبر ، والمسافة بين تبوك وخليج العقبة ٢٠٠ كم ، ومنها إلى عمان ٢٣٠ كم ، وهي على مسيرة يوم أو يومين من بيت المقدس . مقال منشور للكاتب بجريدة صوت الأزهر ، عدد ٤٢٩ ، ٥ ذي الحجة ١٤٢٨ .

ما هذا ؟ فقالوا : شحمة الأرض ، فقال ﷺ : إن شحمة الأرض لطيبة[1].

وفي هذه الغزوة صرّح الرسول ﷺ بالوجهة التي ستتجه إليها هذه الغزوة[2]، وهو ما لم يعلن عنه في بعض غزواته السابقة ، فقد كان يعلن عن السير في اتجاه آخر ، وندب الرسول ﷺ المسلمين للمشاركة في الغزوة ؛ أي للتطوع فيها دون أمر وتكليف ، وتطوع عدد كبير من الصحابة ، وأن الرسول سوف يخرج بنفسه في هذه الغزوة[3].

وبالرغم من صعوبة الظروف الجوية والمالية استطاع الرسول ﷺ أن يعد جيشاً من ثلاثين ألف رجل ؛ أي عشرة أمثال الكتيبة التي سيَّرها قبل سنوات قليلة في غزوة مؤتة ولعل هذا كان أكبر جيش للمسلمين في ذلك الوقت .

ولكن لماذا كان هذا الجهد والعناء والبذل والتصدي لأكبر المصاعب ، ألا يكون هناك هدف كبير وعزيز يريد المسلمون الوصول إليه .

ولا يمكن أن يكون الهدف المقصود هو مجرد ملاقاة الروم ومناوشتهم في معركة لا تعادل فيها بين الطرفين ،

---

(١) الصالحي الشامي : سبيل الهدى والرشاد ، ٢١٢/٧ .

(٢) ابن هشام ، ٢٠٢/٢ . هيكل : حياة محمد ، ص : ٣٦٢ .

(٣) دكتور حسنين هيكل : حياة محمد ، ص : ٣٦٢ ، عبد الحميد الكاتب : القدس ، ص : ٣٣ .

ولا يمكن أن يكون الهدف هو مجرد إظهار قوة المسلمين عندما سمعوا أن الروم يُفكرون في الاعتداء عليهم ، لابد أن هناك هدفاً كبيراً يقتضي البذل كل البذل والعناء والتضحية كأقصى ما تكون التضحية ، ولابد أن يكون الهدف الذي يقصده المسلمون من غزواتهم هذه إلى بلاد الشام ، هو ذلك المكان المعظم القدس الشريف[1].

وإن كانت هذه الغزوة قد انتهت بأن يعود المسلمون فعادوا لا منتصرين ولا منهزمين وعجب الناس من أمر تلك الغزوة التي انتهت كما بدأت بلا قتال،بلا غنيمة ، بلا نتيجة محسوسة، ولكن الواقع أن غزوة تبوك كانت لها أهميتها ، ولها أثرها فيما ستأتي به الأيام من أحداث .

ومن خلال لقاء المسلمين بنصارى الشام في هذه الفترة أحسوا بأن نصارى الشام في حاجةٍ إلى من يُخلصهم من حكم الرومان ، وقد رأوا أنهم لو جاءوا يوماً يفتحون الشام فسوف يجدون ترحيباً من أهلها . . وهذا ما حدث فعلاً بعد سنوات قليلة عندما دخل المسلمون القدس وسط ترحيب أهلها النصارى[2].

---

(١) عبد الحميد الكاتب : القدس ، ص : ٣٤ ، ٣٥ .

(٢) دكتور سيد حسين العفاني : واقدساه ، ١٥٥/١ . عبد الحميد الكاتب : القدس ، ص : ٣٥ .

فكانت غزوة تبوك إذاً أشبه بعملية استطلاعية للمنطقة التي يعتزم المسلمون أن يحملوا إليها دعوة الإسلام عما قريب ، وحملة استطلاعية في المنطقة لمشاعر الناس تجاه حكام الرومان ، وقد كان من الضروري أن يقوم المسلمون بهذه الحملة الاستطلاعية قبل أن يخرجوا من جزيرتهم إلى آفاق أوسع ، وقبل أن يخطوا الخطوة الأخيرة في الطريق إلى القدس الشريف « الأرض المباركة »[1].

وهناك خطوة عملية مع أهل هذا المكان فعندما كان رسول الله ﷺ في تبوك أتاه يحنه بن رؤبة صاحب أيلة ، فصالح رسول الله ﷺ وأعطاه الجزية ، وأيلة تقع على مقربة من خليج العقبة .

وقد كتب رسول الله ﷺ ليحنه كتاباً بالمصالحة هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ﷺ ليحنه بن رؤبة وأهل أيلة سفنهم وسياراتهم في البر والبحر لهم ذمة الله ، ومحمد النبي ﷺ ، ومن كان معهم من أهل الشام ، وأهل اليمن وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثاً فإثمه لا يحول ماله دون نفسه ، وأنه طيبة لمن أخذه من

---

(١) عبد الحميد الكاتب : القدس ، ص : ٣٨ .

الناس ، وأنه لا يحل أن يمنعوه ماء يريدونه ولا طريقاً يريدونه من برٍّ أو بحر »[1].

وكان من علاقات المودة بين رسول الله ﷺ وبين صاحب أيلة ، أن رسول الله ﷺ أهداه برداً ، وقد أهدى لرسول الله ﷺ بغلة بيضاء .

ونقف قليلاً مع ما قام به النبي ﷺ بعد أن عاد إلى المدينة من حجة الوداع ، وفي خلال الأيام الأخيرة من حياته ، فقد كان رسول الله ﷺ يجهز لبعث أسامة بن زيد ، وكانت مهمة بعث أسامة بن زيد كما أمره رسول الله ﷺ أن يتوجه إلى أرض الشام ، وأمره أن يُوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين[2]. فهذه مهمة الجيش أن يصل إلى مكانٍ بعينه ، ثم يعود ، فهي مهمة استطلاعية أكثر من كونها حربية .

والطريف أن ابن هشام يجعل عنوان بعث أسامة « بعث أسامة بن زيد إلى أرض فلسطين ».

فتجهز جيش كبير يتجه إلى نفس الاتجاه الذي سار فيه المسلمون من قبل في غزوتي مؤتة وتبوك وأمر بأن يشترك في هذا الجيش كبار الصحابة ومنهم أبو بكر وعمر .

---

(١) السيرة النبوية ابن كثير ، ٢٩/٤ . سيرة ابن هشام ، ٥٢٥/٢.

(٢) سيرة ابن هشام ، ٢٩٢/٢ .

ونلاحظ أن رسول الله ﷺ وضع على الجيش فتى شابًا لا يتجاوز العشرين من عمره هو أسامة بن زيد فأبوه زيد ابن حارثة ، كان من قبل قائداً في غزوة مؤتة ، وقد استشهد فيها ، فاختار الرسول ﷺ ابن زيد هذا ليقود الجيش ، ومسح الرسول ﷺ على صدر الشاب الذي سوف يُقاتل حيث قُتل أبوه ويُكمل المسيرة التي بدأها أبوه[1].

ثم انظر إلى هذا الأمر من رسول الله ﷺ لأسامة حيث تقول الرواية إن رسول الله ﷺ أمر أسامة بن زيد أن يُوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين ، وانظر إلى هذه التسمية هنا ، والهدف هو أرض فلسطين ، حيث الأرض المباركة حيث بيت المقدس والمسجد الأقصى .

وفي قيادة أسامة بن زيد لهذا البعث ليصل إلى الأرض المباركة ويُمهد الطريق لفتح بيت المقدس وكأن رسول الله ﷺ أراد أن يلفت نظر الشباب إلى دورهم الفعَّال تجاه المسجد الأقصى ، وذلك في إصراره على قيادة أسامة ، حتى يتحمل الشباب مسئولية القبلة الأولى ، ومسرى رسول الله ﷺ في قيادة أسامه بن زيد تنويه بدور الشباب على هذه الأرض .

---

(١) عبد الحميد الكاتب : القدس ، ٢٩٢/٢ .

وقد اهتم الرسول ﷺ بهذا البعث اهتماماً عظيماً ، فقد كان في مرضه ويهتم بهذا الجيش ، فلم يشغله مرضه عن الاهتمام بهذا البعث ، وما أن أحسَّ أنه قد استفاق وهو في مرض موته ، وقد أحسَّ استبطاء الناس في بعث أسامة بن زيد فخرج عاصباً رأسه حتى جلس على المنبر ، وقد كان الناس قالوا في إمرة أسامة : « أمَّر غُلاماً على جلة المهاجرين والأنصار » .

فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : « أيها الناس أنفذوا بعث أسامة فلعمري لئن قلتم في إمارته لقد قلتم في إمارة أبيه من قبله ، وإنه لخليق للإمارة وإن كان أبوه لخليقاً لها »[1] .

ثم نزل رسول الله ﷺ ، وأسرع الناس في جهازهم ، وقد اشتد مرض رسول الله ﷺ ، فخرج أسامة وجيشه حتى نزلوا الجرف فضرب بها عسكره فقام الناس ، وزاد المرض شدة بالرسول ﷺ فأقام أسامة والناس لينظروا ما الله قاضٍ في رسوله[2] .

وكل هذا الاهتمام من الرسول بهذا الجيش ؛ لأنه سوف يتوجه إلى مكان عزيز على الرسول ﷺ حتى أنه ينشغل به ولا ينشغل بمرضه ﷺ .

* * *

---

(١) الصالحي الشامي : سبل الهدى والرشاد ، ١٢/٢٤١ .

(٢) ابن هشام ، ٢/٣٠٢ .